مجلة
اللغة العربية وآدابها
المجلد10/ العدد 01/جويلية 2022. ص 109- 122

العناية بالألفاظ المفردة في مدونة التفسير الأولى؛ الخطة والتنفيذ

Care of single words in the first interpretation code; plan and implementation

فضيلة بنت محفوظ جوهري*

تاريخ الإرسال: 2021/09/18	تاريخ القبول:2022/02/27	تاريخ النشر:2022/07/30

الملخص:

اختار القرآنُ الكريم اللّغةَ العربيّة لتكون وسيلته في تبليغ رسالته, لما لها من خصائص بيانية وتوصيلية وأدوات إبداعية حرص المفسرون الأوائل على النظر فيها والبحث عنها وتجسيدها في عملهم التفسيري، فاعتنوا بالألفاظ المفردة ورسموا خطة منهجية لمن أراد مباشرة عملية التفسير، ثم جسدوا تلك الخطة وهدفهم الأكبر هو حفظ الكتاب الكريم من مغبة الأهواء والانحرافات.

كلمات مفتاحيّة: القرآن الكريم؛ اللغة العربية؛ المفسرون الأوائل؛ الألفاظ المفردة.

Abstract:

The Holy Qur'an chose the Arabic language to be its means of conveying its message, because of its graphical characteristics, connectivity and creative tools .The early commentators were keen to consider it, search for it, and embody it in their exegetical work, so they took care of the single words and drew a systematic plan for those who wanted to direct the process of interpretation.

It is to save the Holy Book from the consequences of whims and deviations.

Keywords: *The Holy Quran; Arabic; The first commentators; Single Words.*

* كلية العلوم الإسلامية جامعة الجزائر1 Hambli031967@gmail.com

1. مقدمة:

أنعم الله تعالى على خلقه بنعمة القرآن, وزاد من فضله عليهم فعلمهم البيان, ومنحهم العقل والقلب واللسان, وحثَّهم على تدبر كتابه العظيم والتفكُّر فيه، فقال: ﴿**كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾, **[ص: 29]**، وهيأ لهم لبلوغ تلك الغاية وتحقيق ذلك المقصد أن جعل خطابه للبشر من جنس ما منحهم إياه من أدوات التواصل, ولا يمكن أن يُفسَّر ذلك إلا على أنه يمنحهم الأداة التي يتوصلون عبرها إلى فهم رسالته, ومن ثَّمَّ فهو ينشئ نوعا من العلاقة بين كلامه وبين عقول البشر, ولا يمكن أن يكون كلامه **عزّوجلّ** بكل اللغات بل بلغة بعينها, وقد اختار لها أن تكون العربية، غير أنه طبعها بطابعه وصبها في قالبه وكأنما جعلها خلقا آخر..

ذلك هو القرآن الكريم: نص لغوي عربي معجز، فكيف تستطيع اللغة أن تحيط بمعانيه؟ إنه خاتم الكتب السماوية وهو موجَّه لكل البشرية على اختلاف الأجناس واللغات والثقافات, فكيف يمكن للغة الواحدة المحدودة أن تفي بتوجهه ذاك؟ إنها إذن لغة فريدة ولا بد في التعامل معها من استصحاب فرادتها وتوخي الدرب الرّاشد في تبيُّن معانيها واستيضاح إمكاناتها، ولأن الألفاظ المفردة هي أول خطوة في ذلك الدرب فإن النظر فيها أول الواجبات، وهذا ما سار عليه المفسرون الأوائل، فكان النظر في مدونة التفسير الأولى لثرائها وعمقها وإحاطتها هو مجال هذه الورقة في محاولة لرصد أهم الخطوات المنهجية التي تم تجسيدها بغية التنبيه على أهمية تمثُّلها في أي عمل تفسير يتوخى الوقاية من الزلل وسوء الفهم، وينشد بداية آمنة للخوض في غمار المعنى القرآني.

2. معرفة الألفاظ المفردة رأس تفسير القرآن الكريم

1.2. ليس لغير العالم باللغة تفسير شيء من الكتاب العزيز

كانت العربية أول الأمر في ألسنة العرب سليقة, فلم تكن بهم حاجة كبيرة للوقوف عند كل تفصيلاتها, ودقائق جزئياتها, ولا احتاجوا إلى جهد أو تعليم لتذوق بيان القرآن, ثم

ISSN: 2352-9830 EISSN: 2600-6898

تقادم العهد، وبعُد الزمن، وفسَد اللسان، فلما كان ذلك، «وكثرت العجم، ودخل في دين الإسلام أنواع الأمم المختلفو الألسنة والناقصو الإدراك، احتاج المتأخرون إلى إظهار ما انطوى عليه كتاب الله من غرائب التركيب، وانتزاع المعاني وإبراز النكت البيانية، حتى يدرك ذلك من لم تكن في طبعه، ويكتسبها من لم تكن نشأتُه عليها، ولا عنصره يحركه إليها، بخلاف الصحابة والتابعين من العرب، لأن ذلك كان مركوزا في طباعهم»[1].

وهكذا أصبح تعلم اللغة العربية لطالب التفسير ضرورة إذ «ليس لغير العالم بحقائق اللغة ومفهوماتها تفسير شيء من الكتاب العزيز ولا يكفي في حقه تعلم اليسير منها فقد يكون اللفظ مشتركا وهو يعلم أحد المعنيين والمراد المعنى الآخر»[2]، بل عليه أن يقف عند الألفاظ المفردة وقفة مطولة فيُحَصّل معانيها، ويتثبت من الفروق بينها ويجتهد في معرفة استعمالاتها ولا يتجاوزها إلا وقد أحكمها إحكاما، فإن التهاون في شأنها منشأ لخلْط وغلط كثير.

2.2. تحصيل الألفاظ المفردة هو المنطلق لفهم التركيب

إن أول ما ينبغي تحصيله هو معاني الألفاظ المفردة، فقد استوقفت الصحابةَ **رضوان الله عليهم** -وهم من هم في خلوص العربية وعلوِّ الكعب في الفصاحة- عدةُ مفردات، فلم يعلموها، وقصة **عمر بن الخطاب رضي الله عنه** من الشهرة بمكان، فقد قرأ: «﴿ **عَبَسَ وَتَوَلَّى**﴾، [عبس: 1]، حتى أتى على هذه الآية: ﴿**وَفَاكِهَةً وَ أَبّاً**﴾،[عبس:31]؛ قال: قد علمنا ما الفاكهة، فما **الأبّ**؟» [3]، وسأل الناسَ مرة «على المنبر عن معنى "التَّخَوُّف" في قوله تعالى: ﴿ **أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ**﴾، [النحل:47]؛ فأجابه الرجل الهذلي بأن التخوُّف في لغتهم التنقُّص»[4].

وهذا حبر الأمة وترجمان القرآن **عبد الله بن عباس رضي الله عنه** يقول: «كنت لا أدري ما ﴿**قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلا تَكُونَنَّ مِنْ الْمُشْرِكِينَ**﴾، [الأنعام:14]، حتى أتاني أعرابيّان يختصمان في بئر، فقال أحدهما لصاحبه: "أنا فَطَرتها"، يقول: أنا ابتدأتها»[5]، ومثل هذه

الآثار تَرِد على من قال: إن «القرآن نزل بلغة العرب وعلى أساليب بلاغتهم فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه» [6], وإنما المقصود هنا أن مجموعهم يعرفه حتى تقوم به الحجة.

وأخرج **البيهقي** من حديث **أبي هريرة رضي الله عنه** مرفوعاً: **{أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه}**[7], والمراد "بإعرابه" هنا «معرفة معاني ألفاظه»[8], مما يدل على أن الدعوة إلى العناية بالألفاظ المفردة قد نشأت بنشوء الرغبة في فهم القرآن منذ نزوله, وعليه فقد «احتلت الدراسةُ المعجمية لألفاظ القرآن الكريم باعتبارها مدخلا أساسيا ومرحلةً منهجيةً ضروريةً لأي محاولة لاحقة في التفسير، عنايةً كبرى في تاريخ الثقافة اللغوية الإسلامية»[9], ولعل نظرة على تاريخ التأليف في التفسير تُظهر أن الدراسات المعجمية التي تمثلها كتب الغريب, والأشباه والنظائر, والمشكل, والإعراب, كانت هي البداية؛ وهي القضايا التي ظلت محور الاهتمام لفترة طويلة, والمؤلفات فيها أكثر من أن تُعد*, فليس من المستغرب إذًا أن يذهب الباحثون إلى أن «الدراسة المعجمية لم تنفصل في نشأتها عن الدراسات القرآنية بصفة عامة, بل إن هذه الدراسات هي التي كانت سببا فعالا ومباشرا في نشأة المعجم العربي والتأليف فيه» [10].

قد يبدو الحديث عن أسباب العناية بالألفاظ المفردة بديهيا من جهة, لأن تحصيلها وفهمها هو المنطلق لفهم التركيب ومن ثم النص كله, غير أن التدقيق في الخلفيات التي جعلت اهتمام المفسرين القدامى بالمفردات يبدو في بعض الأحيان مبالغا فيه يكشف عن أسباب أعمق, ويمكن التركيز على اثنين منها يعتبران الأهم: **أولهما** مواجهة تيار الباطن الذي ربما غالى أصحابه في الاعتداد بالإشارات واللمحات إلى حد يلغون معه الأرضية الصلبة التي تضمن للنص بقاءه وتحميه من التحريف والتأويلات الشاذة, فتغلق الباب في وجه العابثين بمعناه الساعين لجعله مطية يركبها كل ذي هوى فيقودها وفق هواه.

أما **ثانيهما** فهو المتعارف من تطور دلالات الألفاظ والذي شهد في العقود القليلة التي تلت نزول القرآن سرعة كبيرة يمكن إعادتها إلى الاختلاط العميق بين الشعوب على اختلاف ألسنتها ولهجاتها, وهو الأمر الذي ترك أثره واضحا في شيوع اللحن وفساد المنطق, مما أشعر القدماء بالخوف عل لغة القرآن من أن يَدرُس علمُها فشمروا لتدوين اللغة وجمع شواهدها, حفاظا عليها خدمة للغة القرآن الكريم؛ فالابتعاد عن اللغة الأصيلة أورث البعد عن الفهم الصحيح للقرآن الكريم, فلابد إذًا من التصدي لشرح المفردات القرآنية ووضعها في مكانها الذي يصلح أن يكون منارة للفهم, إذ على فهم المراد منها يتوقف فهم دلالات القرآن وأحكامه, وتتوقف التكاليف على مثل ذلك, فإن التكليف بغير فهم ضرب من العبث.

لقد أدرك المفسرون الأوائل الأهمية التي تكتسيها دراسة مفردات القرآن الكريم، وبأسبقيتها على غيرها، فذهبوا إلى «أن أول ما يُحتاج أن يُشتغل به من علوم القرآن العلومُ اللفظية، ومن العلوم اللفظية تحقيق الألفاظ المفردة، فتحصيل معاني مفردات ألفاظ القرآن في كونه من أوائل المعاون لمن يريد أن يدرك معانيه، كتحصيل اللَّبِن في كونه من أول المعاون في بناء ما يريد أن يبنيه» (11).

3.2. دراسة الألفاظ المفردة في التفاسير الأولى

ومن أجل ما سبق ذكره، فقد كان الاهتمام بدراسة الألفاظ المفردة في تفاسير القدماء سمة مشتركة, ولم يكن هنالك اختلاف في دراستها إلا من حيث الاختصار والتوسع, الأمر الذي يتبع مسلك المفسر في كتابه أو طبيعة ثقافته والعلم الغالب عليه من جهة كما تتحكم فيه أسباب عامة سيأتي ذكرها.

ولم يكن عمل المفسرين عملا معجميا, يقصد إلى الجمع والتصنيف بل كان يهتم باللفظة داخل الجملة محاولا بيان معناها من جهة وإظهار جمالها في سياقها من جهة أخرى كما سيأتي, ولهذا غلب الجانب البياني البلاغي في دراسة الألفاظ على جل المفسرين, عكس ما كان عليه علماء اللغة والمعاني **كالفرّاء وأبي عبيدة**, فإن اهتمامهما بألفاظ القرآن لم

يخرجهما إلى زمرة المفسرين رغم عمق دراساتهما وشمولها, لأنهما «كانا مشغولين بتوضيح النص القرآني وشرحه وجعله مفهوما» (12).

ومثالاً على هذا الحكم يمكن المقارنة بين صنيع **الطبري** في تفسيره وطريقة **أبي جعفر النحاس في معاني القرآن**؛ فقد كان **الطبري** يحرص على بيان أن «للكلمة معنى معينا في الآية هو أولى بها من غيره من المعاني المتعددة التي لها في حقل المعجم» (13), ولنأخذ لفظة "**مخمصة**" من قوله **عزوجل**: ﴿ **فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾, (المائدة:3)؛ يقول الإمام **الطبري**: «**فِي** "**مَخْمَصَةٍ**" يعني في مجاعة, وهي"مفعلة" [...] من"خَمَصِ البطنِ"، وهو اضطماره، وأظنه هو في هذا الموضع معنيٌّ به: اضطماره من الجوع وشدة السَّغَب؛ وقد يكون في غير هذا الموضع اضطمارا من غير الجوع والسَّغب، ولكن من خِلقة» (14)؛ وفي المقابل يقول **أبو جعفر النحاس**: «المخمصة ضمور البطن من الجوع» (15), ولا يزيد على ذلك شيئا.

3. إجراءات التعامل مع الألفاظ المفردة

1.3. العناية بالغريب باعتباره إجراءً تفسيريا لا يمكن تجاوزه

لا يخلو إذًا كتابُ تفسيرٍ من كتب القدامى من البدء بشرح الألفاظ خاصة ما تعلق منها بما يُسمى **غريب اللفظ**, بل أصبحت العناية بالغريب إجراءً تفسيريا لا يمكن أن يُتجاوز, وقبل ذلك «تتابعت المؤلّفات في **غريب القرآن** منذ النصف الأول من القرن الأول للهجرة إلى يومنا هذا، فلم يخل قرن تقريبا من وجود مؤلَّف أو أكثر يُعنى باللفظ القرآني الغريب ويشرح المراد منه» (16), حتى قال الإمام **السيوطي**: «أفرده بالتصنيف خلائق لا يحصون» (17).

وقد أحصى غير واحد من الباحثين ما صُنِّف في **غريب القرآن** وقاموا بجهود كبيرة في حصر هذه المؤلفات واستقرائها*؛ ولم يكن يعني مصطلح **الغريب** عندهم الساقطَ أو الحوشيَّ أو ما لا يُستعمل من الألفاظ, كما قد يتبادر إلى ذهن السامع, فإن القرآن قد نزل

بخير ما في العربية وأجمله وأحلاه على السمع, «وإنما يراد بوصف الغرابة أن تكون [اللفظة] حسنة مستغربة في التأويل، بحيث لا يتساوى في العلم بها أهلها وسائر الناس» [18], فقد «رأى بعض من فسر الغريب أن كثيرا منه غريب عن الأفهام؛ لأنه ليس من لغة قريش، وإنما جاء في القرآن من لغات القبائل الأخرى، فأشار إلى ذلك، وسمع بعضهم الآخر ممن اختلط بهم من أهل الكتاب، ومن أهل البلاد القريبة من الحجاز، ومن أهل الأقطار المتاخمة لبلاد العرب، والتي دخلت تحت سيطرة الإسلام، أن بعض هذه الألفاظ موجود في لغات أخرى، فأشاروا إلى ذلك» [19].

ولهذا فلم يستقل بتفسير الغريب إلا العارف باللغة المتضلع بمتنها, الحافظ لشواهدها, يقول الإمام **السيوطي**: «وعلى الخائض في ذلك [يقصد تفسير الغريب], التثبت والرجوع إلى كتب أهل الفن وعدم الخوض بالظن؛ فهذه الصحابة وهم العرب العرباء وأصحاب اللغة الفصحى ومن نزل القرآن عليهم وبلغتهم توقفوا في ألفاظ لم يعرفوا معناها» [20], فمعرفة معاني الألفاظ سبيله النقل الصحيح عن العرب الخلَّص, ولا مجال فيه للاجتهاد.

ولهذا نجد المفسرين فيما بعد قد اعتمدوا اعتمادا كبيرا على مرويات أصحاب كتب **الغريب**, أما «ما يؤثر عن **أحمد بن حنبل** رحمه الله, أنه سئل عن تمثُّل الرجل ببيت شعرٍ لبيان معنى في القرآن, فقال: "ما يعجبني", فهو عجيب, وإن صح عنه فلعله يريد كراهة أن يذكر الشعر لإثبات صحة ألفاظ القرآن, كما يقع من بعض الملاحدة؛ فقد رُوي أن **ابن الراوندي** (وكان يزنُّ بالإلحاد), قال **لابن الأعرابي**: "أتقول العرب لباس التقوى؟", فقال **ابن الأعرابي**: لاباس لاباس, وإذا أنجى الله الناس فلا نجَّى ذاك الراس, هبك يا **ابن الراوندي** تنكر أن يكون **محمد** نبيا, أفتنكر أن يكون فصيحا عربيا؟"» [21].

وهنا إشارة لطيفة توحي بما كان يحرص عليه المفسرون من خلال شرحهم للغريب, وهو بيان القرآن الكريم بما يتيح فهم الدين وتطبيق أحكامه, ولم يكن شرحهم مقصودا

بذاته صناعةً, ولذلك كرهوا تتبّع الألفاظ والمبالغة في استقصاء دلالاتها بما يُخرج الشرح عن الغاية منه؛ يقول **الشاطبي**: «فاللازم الاعتناء بفهم معنى الخطاب, لأنه المقصود والمراد, وعليه ينبني الخطاب ابتداء, وكثيرا ما يُغفَل هذا النظر بالنسبة للكتاب والسنة فتُلتَمَس غرائبه ومعانيه على غير الوجه الذي ينبغي فتستبْهِمُ على الملتمس, وتستعجم على من لم يفهم مقاصد العرب, فيكون عمله في غير معمل»[22]. فالتماس الغريب إذن وسيلة وليس غاية، وسيلة لوضع اللفظة موضعها ضمن السياق الجملة ليظهر المعنى، لا أن يتم تتبعها والاشتغال بها منقطعة عن الغرض المقصود.

2.3. الترادف والاشتراك واستصحاب سياق الجملة

وبالإضافة إلى الغريب تعامل المفسرون بوعي مع ما يسمى في الدراسات اللغوية الحديثة بتعدد الدلالة, وفي ذلك الأثر الوارد عن **أبي الدرداء رضي الله عنه**؛ وهو قوله: **{لا يكون الرجل فقيهاً كل الفقه حتى يرى للقرآن وجوهاً كثيرة}**[23], وهي الفكرة التي ينبني عليها فرع من فروع التفسير اللغوي يسمى **الوجوه والنظائر**، ويقصد <u>بالوجه</u>: «اللفظ المشترك الذي يستعمل في عدة معان»[24]، كلفظ الهدى الذي له سبعة عشر معنى في القرآن أما <u>النظائر</u> فهي «الألفاظ المتواطئة» [25], أي التي تستعمل بمعنى واحد، مثل جواد وكريم؛ فكأن الأول من باب <u>المشترك اللفظي</u>، والثاني من باب <u>الترادف</u>, وهي من المسائل المتعلقة بمباحث الألفاظ, والتي تعتبر دراسات اللغويين فيها سندا مهما للمفسرين.

أما مشاكل **الترادف والاشتراك** فكان حلها يعتمد غالبا على **استصحاب سياق الجملة** والاستعانة بمختلف القرائن, لأنها لا تُطرح إلا حال الحديث عن اللفظ المنفرد, أما واللفظ داخل جملته وسياقه فإنهما كفيلان بتحديد معناه[26]؛ ومن ذلك قول **العزبن عبد السلام**: «وإذا كان للاسم الواحد معانٍ [...], حُمل في كل موضع على ما يقتضيه السياق, كيلا يتبتَّر الكلام ويتخرَّم النظام»[27].

ولإثبات ذلك يمكن تتبع واحد من الألفاظ التي تعد من المشترك والنظر في معناه داخل سياقاته المتعددة, ولنأخذ: الصلاة، فإنها «تأتي على أوجه: الصلوات الخمس: ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ**﴾, [المائدة:55], [...]؛ وصلاة الجمعة: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾, [الجمعة:09], والجنازة: ﴿**وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ**﴾, [التوبة:84]؛ والدعاء: ﴿**خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾, [التوبة:103], والدين: ﴿**قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ**﴾, [هود:87]؛ والقراءة: ﴿ **قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيّاً مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً**﴾, [الإسراء:110]»[28].

ويمكن أن يتضح المعنى المختار للفظة الصلاة في كل من الآيات السابقة إذا استُحضِرَ سياقُه؛ ففي الأولى حملت على الصلوات الخمس لارتباطها بالإقامة, وفي الثانية حملت على صلاة الجمعة لتخصيصها بقوله تعالى: ﴿**مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ**﴾, وفي الثالثة حملت على الجنازة لأن السياق في الحديث عن الصلاة على الميت, وفي الرابعة حملت على الدعاء لأنه أصل المعنى اللغوي لكلمة صلاة ولا يمكن حملها على المعنى الشرعي, وفي الخامسة حملت على الدين لأنه سياق محاججة القوم لنبيهم عن صدق ما جاء به من الدين, وفي السادسة حملت على القراءة لأن الجهر والسر من متعلقاتها.

وأما تعدد الدلالة الناشئ عن الاحتمال فيحُلُّه ما يمكن تسميته بقانون ترجيح المعنى, وهو ما نجده متبعا في تفاسير القدامى, وإن كان اتباعه متفاوتا في التفاصيل, فإنه يكاد يتفق في الإطار العام, يقول الإمام **الزركشي**: «ومعلوم أن تفسيره يكون بعضه من قبيل بسط الألفاظ الوجيزة وكشف معانيها, وبعضه من قبيل ترجيح بعض الاحتمالات على بعض,

لبلاغته ولطف معانيه ولهذا لا يستغنى عن **قانون عام** يعول في تفسيره عليه ويرجع في تفسيره إليه»[29].

وهو الأمر المتعلق بما يسمى **أقسامَ الحقيقة**؛ وهي عندهم ثلاث: لغوية وضعية, وعرفية, وشرعية, فالحقيقة اللغوية في اللفظ هي استعماله «فيما وضع له أولا في اللغة، كالأسد المستعمل في الحيوان الشجاع العريض الأعالي، والإنسان في الحيوان الناطق»[30], أما العرفية فهي «أن يكون الاسم في أصل اللغة بمعنى، ثم يشتهر في عرف استعمالهم بالمجاز الخارج عن الموضوع اللغوي، بحيث إنه لا يفهم من اللفظ عند إطلاقه غيره، كاسم الغائط، فإنه، وإن كان في أصل اللغة للموضع المطمئن من الأرض، غير أنه قد اشتهر في عرفهم بالخارج المستقذر من الإنسان، حتى إنه لا يفهم من ذلك اللفظ، عند إطلاقه غيره»[31], وأما الشرعية فهي التي وضعها الشرع معنًى للفظةٍ كانت موجودة في اللغة من قبل كالصلاة والتيمم والتوحيد ونحو ذلك[32].

3.3. العبرة بعموم اللفظ مع التمكين لمقصد المتكلم

وتطفو هنا إلى السطح -حال الحديث عن تعدد الدلالة وانفتاح الاحتمالات- ثنائيةُ **اللفظ والمعنى** التي تحيلنا على سؤال الذي مفاده: هل العبرة في الكلام بالمعنى المفهوم من اللفظ المجرد, أم هي بقصد المتكلم ومراده؟ إن استصحاب هذا السؤال أثناء شرح الألفاظ وتحديد معانيها يُظهر له من الأهمية قدرا كبيرا, لأن اعتبار القصد قد يحول المعنى تحويلا تاما؛ «ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾, [البقرة:115], فإنا لو تُرِكنا ومدلولَ اللفظ, لاقتضى أن المصلي لا يجب عليه استقبال القبلة سفراً ولا حضراً, وهو خلاف الإجماع»[33], وذلك لأن القصد من الآية إنما هو التعقيب على من أنكروا على الله تغيير القبلة من بيت المقدس إلى البيت العتيق, وبيان أن القبلة قبلة الله أينما توجه المصلي شرقًا أو غربًا[34].

ولهذا جاءت القاعدة المهمة، والتي تتعلق بالمعنى أو الدلالة المعتبرة في عبارة المتكلم، وهي أن «دلالات الألفاظ ليست لذواتها، بل هي تابعة لقصد المتكلِّم وإرادته» [35]، إذ «لابدَّ من اعتِبارِ النِّيَّةِ والمقَاصدِ في الألفاظ» [36]، وبالجملة، «فأهل العربية يشترطون القصد في الدلالة، فما يُفهم من غير قصد المتكلم لا يكون مدلولا للفظ عندهم، فإن الدلالة عندهم هي فهم المراد لا فهم المعنى مطلقا، بخلاف المنطقيين فإنها عندهم فهم المعنى مطلقا، سواء أراده المتكلم أم لا» [37].

ومثال ثان عن ذلك في قوله تعالى:﴿**لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** ﴾، (المائدة:93)، فلا نجد أحدا من المفسرين يذهب إلى أن كل مأكل ومشرب حلال كما هو واضح من ظاهر الآية، بل يفسرها الجميع على أنها أُنزلت «عذرا لمن غبر وحجة على الناس» [38]، أي أنها جاءت لبيان أن من مات مسلما وقد شرب الخمر قبل أن تُحرَّم فلا إثم عليه، فيتضح إذًا، كيف يؤثر اعتبار القصد في تحديد المعنى.

4. خاتمة

والحاصل مما سبق أن التعامل مع الألفاظ المفردة يتوقف عند أمور ثلاثة؛ **أولها:** بيان معاني الألفاظ المفردة وشرحها بما يحقق للقرآن وصف البيان، و**الثاني** هو وضع اللفظة في إطارها داخل النص، ومنحها الدلالة الملائمة لسياقها، أما **الثالث** فهو اعتبار القصد في الألفاظ، لا مجرد ما يمكن أن تدل عليه في أصل وضعها، وهي فكرة مهمة جدا، تحد من تجريد اللغة، وتضبط المعنى بغايات النص ومصدره.

وصلَّى اللهُ وسلَّم على سيِّدنا محمَّد وآله.

*** *** ***

الهوامش:

[1] - أبو حيان النحوي، أثير الدين محمد بن يوسف الأندلسي (ت745هـ): تفسير البحر المحيط, درا/ وتح/ وتع/: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود, والشيخ علي محمد معوض, شارك في تحقيقه: د/ زكريا التوني, ود/ أحمد النجولي الجمل, دار الكتب العلمية, ط1, بيروت, 1413 هـ / 1993م, (120/1).

[2]- الزركشي، بدر الدين محمد بن بهادر (ت794هـ): البرهان في علوم القرآن, تح/: محمد أبو الفضل إبراهيم, دار المعرفة, بيروت, (د ت), (165/2).

[3]- الطبري, أبو جعفر محمد بن جرير (ت310هـ): جامع البيان عن تأويل آي القرآن, تح/: أحمد محمد شاكر, مؤسسة الرسالة, ط1، 1420 هـ/2000 م, (229/24).

[4]- الشاطبي, إبراهيم بن موسى الغرناطي(ت790هـ): المو افقات في أصول الشريعة, دار الكتب العلمية, بيروت, (د ت), (36/1).

[5]- الطبري: جامع البيان, (283/11).

[6]- ابن خلدون, ولي الدين عبد الرحمن بن محمد الحضرمي (ت808هـ): المقدمة, دار الكتب العلمية, ط1, بيروت, 1993م, ص 348.

[7]- البيهقي, أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي (ت 458هـ): شعب الإيمان, تح/: محمد السعيد بسيوني زغلول, دار الكتب العلمية, ط1, بيروت, 1410هـ, (427/2), رقم: 2291.

[8]- السيوطي, جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت911هـ): الإتقان في علوم القرآن, قدم له وعلق عليه: محمد شريف سكر, راجعه الأستاذ مصطفى القصاص, دار إحياء العلوم, ط1, بيروت, 1987م, (523/2).

[9] - محمد المالكي: دراسة الطبري للمعنى من خلال تفسيره جامع البيان عن تأويل آي القرآن, طبع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية, المملكة المغربية, 1417هـ/1996م, ص39.

* منها: "الأشباه والنظائر" لمقاتل بن سليمان (ت150هـ), و"ما اتفق لفظه واختلف معناه من القرآن المجيد"لأبي العباس المبرد (ت285هـ), و"إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم" لأبي عبد الله الحسين الدامغاني (ت478 هـ), و"غريب القرآن" و"تأويل مشكل القرآن" لابن قتيبة (ت276هـ), "تفسير المشكل من غريب القرآن" لمكي بن أبي طالب القيسي (ت437هـ), و"المفردات في غريب القرآن" للأصفهاني (ت502هـ), و"إعراب القرآن" المنسوب للزجاج (ت311هـ), ولابن خالويه (ت370هـ) "إعراب ثلاثين سورة من القرآن", ومنها: "البيان في إعراب غريب القرآن" للكمال بن الأنباري (ت577هـ)، ولأبي البقاء العكبري (ت616هـ) "التبيان في إعراب القرآن", وغيرها.

[10] - محمد المالكي: دراسة الطبري للمعنى, ص 232, 233.

[11] - الراغب الأصفهاني, أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل (ت502هـ): المفردات في غريب القرآن, ضبطه وراجعه: محمد خليل عيتاني, دار المعرفة, ط1, بيروت, 1418 هـ/ 1999م, ص 6.

[12]- نصر حامد أبو زيد: الاتجاه العقلي في التفسير دراسة في قضية المجاز في القرآن عند المعتزلة, المركز الثقافي العربي, ط4, بيروت/ الدار البيضاء, 1998م, ص 106.

[13] - محمد المالكي: دراسة الطبري للمعنى, ص 225.

[14] - الطبري: جامع البيان, (532/9).

[15] - النحّاس, أبو جعفر أحمد بن محمد المصري: معاني القرآن الكريم, تح/: الشيخ محمد علي الصابوني, مركز إحياء التراث الإسلامي, مكة المكرمة, 1988م, (262/2).

ISSN: 2352-9830 EISSN: 2600-6898

16 - د/ عبد الرحمن بن محمد الحجيلي: المعاجم المفهرسة لألفاظ القرآن الكريم, بحث منشور على موقع الإسلام على الإنترنت:http://www.al-islam.com

17 - السيوطي: الإتقان, (313/1).

* منهم: د/حسين نصار في المعجم العربي نشأته وتطوره, [دار مصر للطباعة, ط4، 1988م]، وأحمد الشرقاوي في معجم المعاجم, [دار الغرب الإسلامي, بيروت 1987م], ود/علي شواخ إسحاق في معجم مصنفات القرآن الكريم, [دار الرفاعي, الرياض, 1984م], ود/ ابتسام الصفار في معجم الدراسات القرآنية, [مطابع جامعة الموصل, العراق, 1984م].

18 - الرافعي: تاريخ آداب العرب, (71/2).

19 - أ. د. سليمان العايد: عناية المسلمين باللغة العربية خدمة للقرآن الكريم, بحث منشور على موقع الإسلام على الإنترنت, عنوان الرابط: http://www.al-islam.com

20 - السيوطي: الإتقان, (313/1).

21- ابن عاشور, محمد الطاهر (ت1393هـ): تفسير التحرير والتنوير, الدار التونسية للنشر/ المؤسسة الوطنية للكتاب, الجزائر, 1984م, المقدمة الثانية, (23/1).

22- الشاطبي: الموافقات في أصول الشريعة, (67/2).

23- الأثر في مصنف ابن أبي شيبة: (187/7), كما أخرجه أبو نعيم في الحلية: (211/1). [ابن أبي شيبة, عبد الله بن محمد الكوفي العبسي (ت235هـ): مصنف ابن أبي شيبة في الأحاديث والآثار, ضبطه وعلق عليه الأستاذ سعيد اللحام الإشراف الفني والمراجعة والتصحيح, مكتب الدراسات والبحوث, دار الفكر, بيروت, (د ت)، أبو نعيم الأصفهاني, أحمد بن عبد الله (ت430هـ): حلية الأولياء وطبقات الأصفياء, دار الكتب العلمية, بيروت, (د ت).]

24- الزركشي: البرهان, (102/1) .

25- المصدر نفسه, الصفحة نفسها.

26- يُنظر: د/ طاهر سليمان حمودة: دراسة المعنى عند الأصوليين, الدار الجامعية للطباعة, الإسكندرية, 1997م, ص 128 وما بعدها.

27- الوهيبي: العز بن عبد السلام: حياته و آثاره ومنهجه في التفسير, ص 75.

28 - السيوطي: الإتقان, (383/1).

29 - الزركشي: البرهان, (15/1).

30 - الآمدي, أبو الحسن علي بن محمد: الإحكام في أصول الأحكام, تح/ وتع/: عبد الرزاق عفيفي, المكتب الإسلامي, ط1, الرياض, 1387هـ (27/1).

31 - المصدر نفسه, الصفحة نفسها.

32 - يُنظر: المصدر نفسه, الصفحة نفسها.

33 - السيوطي: الإتقان, (85/1).

34 - يُنظر مثلا: ابن كثير, عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر الدمشقي (ت774هـ): تفسير القرآن العظيم, تح/: سامي بن محمد سلامة, دار طيبة للنشر والتوزيع, ط2, 1420هـ/1999م, (391/1).

35- الآمدي: الإحكام في أصول الأحكام, (14/1).

[36]- ابن قيم الجوزية: أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر (ت751هـ): إعلام الموقعين عن رب العالمين، تح/، وتع/: عصام فارس الحورستاني، دار الجيل، ط1، بيروت، 1998م، (83/3).

[37]- التهانوي، محمد بن علي الفاروقي الحنفي (ت بعد1158هـ): كشاف اصطلاحات الفنون، وضع حواشيه: أحمد حسين سبح، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1418 هـ/ 1998م، (492/2).

[38]- يُنظر: القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت671هـ): الجامع لأحكام القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1985م، (299/6).